الجزء الثاني — المجلد السادس والأربعون

مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق
« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

نيسان « ابريل » سنة ١٩٧١ م — صفر سنة ١٣٩١ هـ

# الرواية والرواة
## في أدبنا العربي (١)

إذا قلنا الرواية والرواة في أدبنا مشكلة من مشكلات هذا الأدب فهل نستطيع أن نحلّ هذه المشكلة ، ولكن لماذا أميل إلى الشؤم في فاتحة الكلام ، لماذا لا أشرع في الكلام على أولية الرواية وعلى أوّل من جمع الأشعار والأخبار ، وعلى شروط الرواية وآداب الرواة ، وعلى أكاذيب من كذب وصدق من صدق من الرواة ، وأخيراً على الرواية في كتاب الأغاني .

فلنشرع في الكلام على هذا كله

إذا أردنا أن نحيط بالأمور التي تقدّم ذكرها فإن كتب أدبنا فيها المقنع ، إلاّ أنّ طائفة من المستشرقين لم يكتفوا بهذه الإحاطة ، فقد وسّعوا آفاق

(١) من المحاضرات التي ألقاها في جامعة الكويت الأستاذ شفيق جبري عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بحثهم عن الرواية والرواة ، وفي جملتهم « بلاشير » أستاذ الأدب في كلّية الآداب بباريز ، لقد اهتمّوا بمعرفة هذا الأمر : هل كان الشاعر في الجاهلية يكتب شعره ، ووصلوا إلى القول ان الخط العربي قد انتشر في شبه جزيرة العرب ، ولكنهم لم يوضحوا الأماكن التي انتشر فيها هذا الخط ، إلاّ أن الواضح كل الواضح أن الخط انتشر بعد تدوين القرآن الكريم ، وبعد استعمال العربية في الدواوين ، غير أنه ليس من الواضح أن الشاعر في الجاهلية قد لجأ إلى الخط في تدوين شعره ، على أن فئة من المستشرقين ذهبوا إلى أن الشاعر الجاهلي كان يعرف أن يمسك بالقلم بيده ، واستدلّوا على ذلك ببعض الصُّوَر والتشبيهات التي وردت في شعر الجاهليه ، فليس بالأمر الغريب في رأيهم أن يكون بعض الشعراء المقيمين بمكة أو بالطائف أو بالحيرة كانوا يلقون الخطوط الأُول من قصائدهم على الورق ، إلاّ أنهم خرجوا من هذا كلّه بالنتيجة الآتية : إن الأثر الشعري في العصور القديمة كان يرتجل ارتجالاً ، فلم يكتب شعراء الجاهليه أشعارهم ، فقد كان الشعر يأتيهم عفواً فيرتجلونه حتى إذا ذهبوا ذهب الشعر معهم ، فمن الذي كان يتذكر هذا الشعر أو من الذي كان يضمن له الدوام ، ثم استدركوا ما قالوا بقولهم إن التاريخ قد نقل لنا خبر شعراء اشتدت عنايتهم بتنقيح شعرهم وعلى رأسهم زهير الذي كان يهذّب شعره ويطيل النظر فيه .

لقد كثر حدْسهم ووهمهم في أمر تفكير شعراء الجاهليه في كتابة أشعارهم ، ولكن هذا الحدْس لم تكن له نتيجة واضحة ، والنتيجة الواضحة أن شعر الجاهلية كان ينتقل من فمٍ إلى فمٍ ، فكان للشعراء رواة ، فزهير كان راويته ابنه كعباً وزهير نفسه كان راوية أوْس بن حَجَر ، لقد كان عمل الراوية عظيماً ، همُّ الراوية أن يساهم في نشر الشعر وإذا لم يستطع الشاعر نفسُه أن يُنشد شعره وينشره بين الناس قام مقامه راويته ، وإذا مات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشاعر فإن شأن الراوية يزداد ، فلا يقتصر عمله على رواية الشعر وحده ، وإنما يمتدّ هذا العمل إلى جمع ما بُعثر من الشعر ، وتوضيح الأحوال التي قيل فيها ، فالراوية كان بمثابة مستودع لآثار الشاعر تهتمّ به القبيلة بأجمعها ، ولكن هل كان الرواة يستخدمون أقلامهم في تثبيت الشعر في جماهير الناس ؟ فلم يستطيعوا أن يقطعوا بهذا الأمر .

على أن كتب أدبنا لم تخل من الإشارة إلى معرفة نفر من أهل الجاهلية للكتابة ، فالكتابة كانت معروفة قبل الإسلام ، فمن أهل الجاهلية نفر ذو عددٍ كانوا يكتبون ، واشتهر في الإسلام بالكتابة من عِلْيَة الصحابة عمر وعثمان وعليّ وطلحة وأبو عبيدة وأُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت ويزيد ابن أبي سفيان ، وكثر من يكتب بمكة من قريش ، وتعلّم المهاجرون الكتابة من أهل الحيرة ، كما تعلّمها أهل الحيرة من الأنبار ، ولا نستطيع أن نقول إن العرب كلّهم في تلك الأزمان ، أهل المدر منهم وأهل الوبر قد عرفوا الكتابة كلها والحروف كلها ، فمنهم من كان يعرفها ومنهم من كان يجهلها ولكن المهمّ أن الكتابة كانت معروفة .

وبعد أن فرغ المستشرقون من الكلام على الرواية في الجاهلية ، انتقلوا إلى الكلام على الرواة في الإسلام ، فلم يختلفوا كثيراً عمّا ذكره علماؤنا في القديم ، ففي رأيهم نشأت الدولة في الإسلام ونشأت الاختلافات ، وهم يريدون بهذه الاختلافات تنافس القبائل وعنايتها بالمفاخر والمثالب والحروب والأنساب وغير ذلك ، حتى كان الخلفاء يضطرون إلى الاستعانة برواة الأخبار والأشعار والأنساب لتأييد أمر أو لنفي أمر ، وقد يدخل في الاختلافات نغمة اليمن ومضر وما تبع هذه النغمة من الاهتمام بالمفاخر والمثالب .

وقد وضّح عمرو بن العلاء أوّلية الرواية في الإسلام في قوله : لمّا راجعت العرب في الإسلام رواية الشعر بعد أن اشتغلت عنه بالجهاد والغزو ، واستقلّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وأشعارهم ، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواية .

من هذا يتبيّن لنا أنه لما اتسع الإسلام واتّسعت باتساعه الفتوحات ، فتوحات الشام والعراق ومصر وفارس كان لا بدّ لكل قبيلةٍ من العنايه بجمع مفاخرها وحروبها والاهتمام بجمع مثالب أعدائها ، ويذكر بعض المؤرخين أن معاوية هو أوّل من اعتنى بجمع الأخبار وسير من تقدم من الملوك ، عربهم وعجمهم ، ولمّا كان الشعر ديوان علم العرب ومنتهى حكمتهم كانت القبيلة ، على ما ذكره ابن رشيق ، إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، وتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذبّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكرهم .

ولكن في أي عصرٍ بدأ التدوين ، ذهبت فئة إلى أن التدوين ، أي تدوين الشعر كان قديماً في العرب ، فقد كان عند آل النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بني مروان .

وكيف كان الأمر ، فإن التدوين أوّل ما نشأ نشأ في المدن الكبيرة ، في البصرة والكوفة ، في المدينة ودمشق ، فالشعر الجاهلي كان عرضة لكل زيادة أو نقصان حتى العصر الذي بدأ فيه التدوين ، وقد حدّد بعضهم هذا العصر فقالوا هو أواخر القرن الهجري الأوّل ، وبعضهم جعل التدوين من أيّام عمر بن أبي ربيعة ، وقد تكاثرت الآراء في هذا الباب ، فعلى أيّام الوليد جمع أحد الخطّاطين لهذا الخليفة أشعاراً وأخباراً وقالوا إن الفرزدق كان عنده ديوان مخطوط لزهير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا عرفنا أوّلية الرواية وعصر التدوين لزمنا أن نعرف أوّل من جمع أشعار العرب ، يقول الجمحي : إن أوّل من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمّاد الراوية .

ولمّا كان للرواية شأن غير يسير في أدبنا وضعوا للرواة آداباً ، وقد عقد صاحب المزهر في كتابه فصلاً في من تقبل روايته ومن تردّ ، نقل فيه كثيراً من كلام أئمة اللغة على شروط الرواية والرواة ، ومن أعظم هذه الشروط في رأي ابن فارس والأنباري الصدق والأمانة والعدالة حتى إذا كان ناقل اللغة فاسقاً لم يقبل نقله ، لقد قال ابن فارس : فليتحرّ أخذ اللغة أهل الأمانة والصدق والثقة والعدالة ، فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا .

وقال الخليل : إن النحاريرَ ربّما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللَّبْس والتمنيت .

ولا تنطبق هذه الأقوال على نقل أهل اللغة وحدها ، ولكنها تنطبق على نقل الشعر أيضاً ، فعلى الرغم من شروط الرواية وآداب الرواة وقع الشك في نقل كثير من الرواة . نشأت الرواية ونشأ الرواة ، فكان الرواة صنفين ، صنف منهم عرف بالعفّة ، وصنف عرف بالأكاذيب ، أمّا الصنف الأول فقد عقد لهم ابن جني في كتاب الخصائص باباً في صدق النقلة وثقة الرواة والحملة ، أثنى فيه على الثقات منهم كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي والكسائي وغيرهم . فأبو عمرو هو أبو العلماء وكهفهم ويد الرواة وسيفهم ، والأصمعي صنّاجة الرواة والنقلة ، والكسائي صاحب العقل والعفّة ، وقد دافع ابن جني عن بعض الذين تعرضوا منهم للطعن ، فهذه الطبقة من الرواة لا شأن لنا معها لأنها عرفت بالصدق والأمانة والعدالة ، فلم يدخل الضيم معهم على اللغة والشعر ، لأنهم لم يشوهوا الشعر ولا شوّهوا اللغة بالوضع على الألسنة وباختراع الأكاذيب ، وأمّا الطبقة الثانية من الرواة فأصحابها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هم الذين خلقوا المشكلة في أدبنا ، هم الذين خلقوا لنا مشكلة لم تحلّ حتى يومنا هذا ، ولا بأس بأن نعرف شيئاً من أكاذيبهم وشهادة الناس فيهم ، ولكن هذا الباب طويل ، إذا أحببنا الاستقصاء فيه فإنّا لا ندري كيف نخرج منه ، وإنما حسبنا الاكتفاء باليسير مما قيل في هذا المعنى .

فمن أكاذيب حمّاد ما روي عنه في كتب الأدب : كان أحد النّاس عند حمّاد ، فجاءه أعرابي فأنشده قصيدة لم تُعرف ولم يدر لمن هي ، فقال حمّاد : اكتبوها وقام الأعرابي ، قال : لمن ترون أن نجعلها ، فقالوا أقوالاً ، فقال حمّاد : اجعلوها لطرفة .

وكان حمّاد يلحَن ويكسر الشعر ويصحّف ويكذب . والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ولكن أكثره مصنوع ، ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك بيّن في دواوينهم .

وفي أخبار طُرَيْح في الأغاني أنه كان مختصاً بالوليد بن يزيد ، كان يكرمه وكانت له منزلة قريبة ومكانة ، وكان يدني مجلسه وجعله أوّل داخل وآخر خارج ، ولم يكن يصدر إلاّ عن رأيه ، فاستفرغ مديحه كله وعامّة شعره فيه ، فحسده ناس من أهل بيت الوليد وشكوا ذلك إلى حمّاد الراوية ، فعمل حمّاد بيتين من الشعر على لسان طُرَيْح ودفع البيتين إلى الخَصيّ الذي كان يقوم على رأس الوليد ، وعلّموه إيّاهما لينشدهما الوليد وليقول له إذا سأله عنهما أنهما لطريح ، فكان هذان البيتان السبب في نكبة طريح .

وفي أخباره في كتاب الأغاني أن الطرمّاح أنشده قصيدة في مسجد الكوفة فلما سمعها حمّاد ادّعاها لنفسه ونفاها عن الطرمّاح ، فطال الكلام بينهما في هذا الشأن حتى قال الطرمّاح لحمّاد : أنت رجل ماجن ، والكلام معك ضائع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي رأي الجمحي أن حمّاداً كان غير موثوقٍ به ، وكان ينحَل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار ، وقد روى شيئاً من زياداته .

ولم يكن خلف أعفّ من حمّاد في الوضع ، كان خلف مولى أبي بُرْدة ابن أبي موسى الأشعري ، أعتقه وأعتق أبويه ، وكان أعلم الناس بالشعر ، وكان شاعراً ووضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً وعلى غيرهم ، وأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة ، ولم يُر أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان يضرب به المثل في عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبّه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ، ثم نسك فكان يختِم القرآن في كل يوم وليلة وبذل له بعض الملوك مالاً عظيماً خطيراً على أن يتكلم في بيت شعر شكّوا فيه فأبى ذلك ، وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصِدونه لمّا مات حمّاد الراوية لأنه قد أكثر الأخذ عنه وبلغ مبلغاً لم يقاربه حمّاد ، فلمّا نسك خرج إلى أهل الكوفة فعرّفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم .

وفي أمالي القالي كان خلف يقول القصائد الغرّ ويدخلها في دواوين الشعراء ، وقد وضع على ألسن الشعراء قصائد ذكرت في بعض كتب الأدب ، منها كتاب المزهر ، ففيه أمثلة من الأبيات المستشهد بها التي قيل انها موضوعة .

وأبو عمرو بن العلاء ، على عفّته والذي قال فيه ابن جنّي : أبو العلماء وكهفهم ، ويد العلماء وسيفهم ، قال : ما زدت في شعر العرب إلاّ بيتاً واحداً ، يعني ما يروى للأعشى من قوله :

وأنكرتني ، وما كان الذي نكرتْ من الحوادث إلاّ الشيب والصلعا

ولكنه اعترف بزيادته ، وتراجع فيه إلى الله تعالى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم ينفرد حمّاد وخلف وغيرهما بالوضع والأكاذيب ، فقد انضمّ إليهم ناس كثيرون ، قال الأصمعي : أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلاّ مصحّفة أو مصنوعة ، وكان ابن دأب يضع الشعر وأحاديث السَّمَر وكلاماً ينسبُه إلى العرب ، فسقط وذهب علمه وخفيت روايته ، وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر .

وقد قال أبو عبيدة ان ابن داود بن متمّم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدَم له البدوي من الجَلَب والميرة ، فسأله أبو عبيدة ومن كان معه عن شعر أبيه متمّم وقاموا له بحاجته فلما فقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لهم ، وإذا كلام دون كلام متمّم ، واذا هو يحتذي على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمّم والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة وأصحابه أنه يفتعله .

إلاّ أن رواة الشعر كانوا ينقدون الشعر في الزيادات ، ففي أمالي القالي على لسان يحيى بن سعيد القطّان أن رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، يروون مصنـــوعاً كثيراً ورواة الشعر ساعة يُنْشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون : هذا مصنوع .

وكما كانت العناية برواية الشعر كذلك كانت العناية بجمع اللغة والنحو والتصريف ، وكانت البصرة والكوفة مسرحي رجال هذه العلوم ، منهم أبو عمرو بن أبي العلاء والثقفي والكسائي ، وقد نشأت الخلافات بين علماء البصرة وعلماء الكوفة ، ولكل بلدة مذهب في اللغة معروف قد يستغنى عن الإفاضة فيه ، وقد انصرفت عناية أولئك العلماء ، علماء العراق إلى دراسة القرآن والشعر والأنساب والأخبار فاختص سيبويه والخليل بالنحو وشرح اللغة ، كما اشتهر أبو عبيدة بعلم اللغة والأخبار ، وعمر بن شَبَّة والهيثم بن عدي وابن الكلبي بجمع التاريخ والتراجم ، فتضافرت هم العلماء على العناية باللغة والنحو والحديث ، ومن ذلك نشأ الاهتمام بوضع المعجمات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أمَّا رواية اللغة فإنها تختلف بعض الاختلاف ، لقد اجتهد كثير من علماء اللغة في تدوين مفرداتها ، ويدخل في هذه المفردات الغريب والنوادر والشوارد ، وقد التقطوا أكثر الألفاظ من أفواه أهل البادية ، فقد اتسع علمهم بحياة البدو ولغة القبائل وأخبارها وأيّامها وأنسابها ، إننا لا نرى في ذلك ضيماً ، ولا شك في أن أكثر النوادر والشوارد والغريب من الألفاظ لم تستعمل في أيّام بني العبّاس ، فإن أيّامهم كانت أيّام حضارة ، والألفاظ الغريبة والحوشية تموت عادةً في عصر الحضارة ، فلا تشيع على ألسن الكتّاب والشعراء ، وإذا كان فضل في تدوين اللغة الغريبة فعنوان هذا الفضل أن اللغة تعبّر عن روح الأمة ، عن مزاجها وأخلاقها وسجاياها ، عن تقليدها وعواطفها وشعورها ، فالألفاظ التي دوّنت في عصر التدوين هذه هي مزاياها إنها صورة الأمة التي ظهرت فيها ، على أنه ما انتهى إلينا مما قالت العرب إلاّ أقلّه ، هذا ما قاله أبو عمرو بن العلاء .

وإذا كنّا نبحث عن الرواية والرواة في أدبنا فلا يجدر بنا أن نغفل عن الإشارة إلى كتاب جمع الكثير من أدب العرب في الجاهلية وفي عصور الصدر الأول وبني أمية وبني العباس ، وبناه مؤلفه على الروايات والأسانيد ، أريد بهذا الكتاب : كتاب الأغاني لصاحبه أبي الفرج الأصبهاني .

لم يكن أبو الفرج من نمط الرواة الذين سبقت الإشارة إليهم ، فلم يقتصر في رواياته على ذكر الأشعار والأخبار والأيّام . وإنما امتدّت هذه الروايات إلى آفاق أبعد ، امتدت إلى سير الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام ، فذكر لنا أشياء غير قليلة من مجالس الملوك في الجاهلية ، ومن قصور الخلفاء في الدولتين فقد تكلّم على لهو بعض الخلفاء وتبذيرهم وترفهم ، تكلّم على أشياء مخفية ، فكان همّه أن يدخل على الخلفاء قصورهم ، وأن يسمع بأذنيه ما يتساقطونه من الأحاديث ، ويرى بعينيه منازل الجواري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والقيان والمغنيات من قلوبهم ، فكأنّ له نزعة خاصة إلى أشباه هذه الأخبار ، حتى يُعلم الناس بما يجري في قصور خلفائهم وأمرائهم وعمّالهم ، وحتى يطلعهم على أمور تذهب بكل هيبة وبكل حرمة ، فإذا كانت غايته ما أشرت إليه ، فلا شك في أن فضله عظيم ، فقد نبّه الأذهان على أمور كانت غافلة عنها ، والخلاصة إذا رمى في تأليفه كتابه إلى بعض ما ذكرته فكأنه أراد أن يستثير العصور على شكل من الحياة ، لقد آن لنا أن نعرف مرامي أبي الفرج وأن نبحث عنها ، ولم يقتصر في أغانيه على أخبار الملوك والخلفاء وحدهم ، وإنما كان إذا روى أخباراً لها صلة بحرية الناس وعبوديتهم روى من هذه الأخبار ما يقوي الميل إلى هذه الحرية والنفرة من هذه العبودية ، وتحصيل القول : إن كتاب الأغاني يشتمل على نوعٍ من الحياة بحذافيرها ، فإذا كانت روايات الأغاني على هذا الشكل من الشأن فلا شك في أن الذي يهمنا قبل كل شيء إنما هو التوثق من صحة هذه الروايات ومن صدق صاحبها .

نظن أن المجال لا يتسع للإفاضة في الكلام على أبي الفرج الأصبهاني من مجامع نواحيه فلا مندوحة لنا عن الإيجاز فى ذكر أشياء تتعلق به من ناحية أدب الرواية وأخلاق الرواة ، فالذي تبيّن لنا من دراسة الأغاني أن من أخلاق صاحبه المسامحة والإنصاف وأدب النفس وغير ذلك ، وقد تهمّنا الإشارة إلى هذه الأخلاق لصلتها القوية برواياته ، لأن كتاب الأغاني كما ذكرنا مبني على الروايات والأسانيد .

إذا أردنا أن نستشهد بكل ناحية من نواحي أبي الفرج امتدّ بنا الكلام ، فلا أقلّ من الإلماح إلى هذه النواحي إلماحاً : فمن أخلاقه مثلاً انه لا يجعل لأخلاق أهل الفن صلة بنقد فنّهم ، فإذا ذكر طائفة سيئة من أخلاق بعض الشعراء فإنه يفصلها عن شعرهم ، فلا يجعل لها تأثيراً في نقد هذا الشعر ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من هذا النحو مثلاً رواية خبر في كلامه على الأحوص وعلى أبي تمّام وعلى ابن المعتزّ وغيرهم ، ومن الهيّن الرجوع إلى أشباه هذه الأخبار ، فقد يذكر مثلاً ما يُروى عن الشاعر ممّا يعتقده الناس تأخراً ونقصاً ، ثم لا يغفل في هذا كلّه عن الشهاده له بحسن رونق شعره وصفائه إذا كان جديراً بمثل هذه الشهادة ، فلا يجعل للنقص سبيلاً إلى الغضّ من فضيلة الشعر .

وقد بلغ من إنصافه أنه لما ذكر كعب بن الأشرف لم يبخسه حقه على يهوديته وعلى عداوته للنبي ﷺ .

وإذا كان لا بدّ من ذكر شيء من كلامه في هذا المجال ، فإني أذكر كلامه على جحظة ، فقد تكلّم على أحمد النُصَيْبي صاحب الأنصاب وأول من عني بها فقال :

وذكره جحظة في كتاب الطُنْبوريين فأتى من ذكره بشيء ليس من جنس أخباره ولا زمانه ، وثلبه فيما ذكره ، وكان مذهبه ، عفا الله عنّا وعنه ، في هذا الكتاب أن يثلب جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبح ما قدر عليه ، وكان يجب عليه ضدّ هذا لأن من انتسب إلى صناعة ثم ذكر متقدمي أهلها كان الأجمل به أن يذكر محاسن أخبارهم وظريف قصصهم ومليح ما عرف عنهم ، لا أن يثلبهم بما لا يعلم وما يعلم .

إني لم أذكر ما ذكرت من اليسير من أخلاق صاحب الأغاني إلاّ لصلة هذا كلّه برواياته ، وقد نسبوه إلى التشيع ، والذين نسبوا التشيع إليه لا يقتصرون على مشايعته لعلي رضي الله تعالى عنه أو لذريته ، وإنما يريدون بذلك أنه غير ثقة في الأخبار التي رويها عن الذين انحرفوا عن عليّ وحزبه وقاتلوهم ، كبني أمية أو كبني العبّاس الذين قاتلوا الطالبيين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد روى أخبار طائفة من خلفاء بني أمية ، في جملتهم هشام ، وروى أخباراً عن يزيد بن معاوية فلم يؤثر تشيعه الذي نسبوه إليه في هذه الروايات ، ولا طوى من حسنات المنحرفين عن عليّ ولا زوّر سيئات عليهم ، معنى هذا ، أنه كان ثقة في أخباره ، يحاسب ضميره ووجدانه ، يقول الحق على جماعته وعلى عدوّه على السواء .

إني لآسف على أن المجال يضيق عن الاستشهاد بتأييد ما قدّمت ، وإن كانت مواطن الاستشهاد مبثوثة في كتاب الأغاني ، ولا يصعب على أحد الرجوع إليها .

وما قدّمت ما قدّمت إلا ّ للوصول إلى الكلام على براءة ذمة أبي الفرج في رواياته ، وعلى نقده للرواة ونقد الرواة له ، وعلى تحقيقه في رواياته ، إلا أنه ليس من السهل الإفاضةُ في هذا الباب في مثل هذه المحاضرة ، ولكن لا مفرّ من الإشارة إلى أشياء يسيرة من هذا القبيل .

يروي عن عمه خبراً من الأخبار ثم يقول : وأنا ذاكر ممّا وقع إليّ من أخباره ، أي من أخبار مجنون بني عامر ، جملاً مستحسنة ، متبرئاً من العهدة فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخباره ينسبُها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حكيت عنه إليه ، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتبع للعيوب .

فهذه العبارة تدلنا على مقدار ورعه في الروايات ، فالصدق وشدّة التوقي أبرز خصائص أبي الفرج في رواياته ، وحسبنا أن نعلم أخلاق بعض الذين حمل العلم عنهم ، فقد قال في أخبار أبي عبد الله محمد بن العبّاس بن محمد ابن أبي محمد : كان فاضلاً ، عالماً ، ثقة فيما يرويه ، منقطع القرين في الصدق وشدّة التوقي فيما ينقله ، وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة هذا العلم ورواته علماً كثيراً ، فسمعنا سماعاً جمّاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إنّا لا نشك في أن أخلاق هذا العالم الفاضل قد أثرت في أبي الفرج الأصبهاني من ناحية الصدق وشدّة التوقي ، وقد بلغ من حرصه على الحقيقة أنه كان يهتمّ بها بعد موته على نحو اهتمامه بها في حياته ، ونجد ما يثبت ذلك في الفصل الذي عقده لأغاني الخلفاء .

لم يرو أبو الفرج أخباره على علاّتها ، فإذا وجد سبيلاً إلى نقد الرواة نقدهم حرصاً على الحقيقة ، فقد ينقل مثلاً خبراً عن ابن خُرْداذبة فكان يطعن عليه إذا لزم الطعن ولا يردّ بعض أقواله إذا كانت هذه الأقوال مقبولة ، فكان في بعض الأحيان ينقد الرواة ويأتي بروايات تنقض أقاويلهم وابن خُرْداذبة أكثر الرواة الذين كذّبهم ، فقد عرّض به في مواضع كثيرة من كتابه وكذلك ابن الكلبي .

وكما نقد الرواة فإنه لم ينج من نقدهم له ، فقد رماه بعضهم بالكذب ، وقال انه يدخل سوق الورّاقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها .

هذا هو التحامل ! يسلخ صاحب الأغاني خمسين سنة في تأليف كتابه ويتوخّى فيه الصدق وشدّة التوقي ، فيجهد نفسه في البحث عن أصح الأخبار والروايات والأحاديث ويتبرأ فيها من كل عهدةٍ ويحاسب الرواة على الأكاذيب والخطأ والخطل ويؤآخذهم بكل تحامل وحمق وسبّ وشتم وتجهيل ، فيجيء أحد النقاد فيقول فيه إنه أكذب الناس دون أن يكلّف نفسه بيان موطن من مواطن هذا الكذب ، هذا هو الأمر الذي لا يرضى به منطـــق ولا خلق ولا ضمير .

على أن أبا الفرج إذا دخل سوق الورّاقين واشترى الصحف ، فقد كان إذا نسخ من كتاب أو جمع منه يقول : نسخت من كتاب كذا ... أو جمعت من كتاب كذا ... وقد نجده في بعض المواضع يقول : نسخت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من بعض الكتب فلا يذكر أسماءها ، أمّا أن ينسخ منها أو يجمع دون الإشارة إلى ذلك فهذا أمر نزّهه عنه صدقه وأمانته .

سلك أبو الفرج في أغانيه مسالك المحدّثين ، فإن كتابه لا يخلو من العبارات الآتية : أخبرني فلان ... حدّثني فلان ... ثم يذكر بعد هذه العبارات أسانيد الأخبار والروايات والأحاديث ، كان الراوية في بعض الأحيان يروي خبراً من الأخبار فيحفظه ، ثم يخلو إلى نفسه في ساعةٍ من الساعات فينشيء الخبر وقد يزيد بعد الإنشاء قوله : واللفظ يزيد أو ينقص ، أو الحكاية تزيد أو تنقص .. ومعنى هذا أنه كان يروي الحكايات كما سمعها ، وقد تزيد هذه الحكايات أو تنقص ولكنها تحافظ على جوهرها ، وأحياناً كان يجمع أخبار الرواة على اختلاف ألفاظهم ثم ينشؤها إنشاءً بألفاظه ، وقد تزدحم عليه الروايات والأسانيد في بعض الأوقات فيضطر إلى التفصيل فيقول : أخبرني بخبره فلان قال : حدّثنا فلان عن فلان وأضفت إلى ذلك ما رواه عن أصحابه ، وما اتفقت الروايتان فيه ، فإذا اختلفتا نسبت كل خبر إلى راويه . ولم يرو في أغانيه حديثاً أو خبراً أو حكاية دون ذكر الأسانيد .

أمّا الفصل الذي يدلّ على عناية أبي الفرج بالصدق والأمانة في رواياته فإنما هو فصل تحقيقه وتمييزه ، وهو فصل طويل لا سبيل إلى اختصاره ، كان مثلاً يروي خبراً عن أحد الرواة ثم يشك في هذا الخبر ، ولكنه لا يأتي بدليل على صنع الخبر فيلقي التهمة فيه على الراوي ، ولا نجد مثل هذا الأمر في رواية الأخبار وحدها ، ولكنّا نجده أيضاً في رواية بعض الأشعار ، فمرّة كان لا يحقق ومرّة كان يحقّق ، وتحقيقه في رواية بعض الأشعار مبني على أساس متين ، على أساس لغة الشاعر ومذهبه وما شاكل هذين الأمرين ، وكما كان يحقّق في الأخبـــار والأشعار فكذلك كان يحقق في الغناء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلاّ أنه كثيراً ما كان تدركه الحيرة والارتباك والتناقض في طائفة من رواياته كما وقع له هذا الأمر في أخبار مجنون بني عامر ، وعلى كل حال كان لا يقبل الأخبار على علاّتها ، فإذا وقع إليه خبر غريب حار في أمره في البدء ثم حاول الخروج من هذه الحيرة ، وحسبه حيرته فإنها مفتاح للتحقيق ، ثم يجهد نفسه في التحصيل والتمييز فيهتدي إلى حلٍّ ، سواء أكان الحلّ صحيحاً أم كان خطأً ، إنه على كل حال قد عُني فيه بالتحقيق وهذا حسبه .

ومن أساليبه في التحقيق أنه يلجأ في بعض الأحيان إلى دراسة خط الشاعر فيستنتج من هذا الخط صحة الشعر أو انتحاله ، وإضافةً إلى هذه الأساليب في التحقيق كان في طائفة من الأحوال يرجع إلى المحاكمات العقلية في رواية ما يشك فيه .

لا نستطيع أن نقول إن تحقيقه كان متكاملاً في كل حين ، ففي بعض الأوقات يقول مثلاً : إن هذا الخبر مصنوع ، ولكنه لا يأتي فيه بدليل على صنعه ، فيلقي العهدة فيه على راويه ، وكما كان تحقيقه في بعض الأحيان غير متكامل في الأخبار ، فكذلك كان في بعض الأحيان غير متكامل في الأشعار ، فهو يروي مثلاً بيتين لشاعر ، ثم ينسبها إلى شاعر آخر بحسب ما سمعه من الرواة ، فنجد في ذلك التبرؤ من العهدة على قدر الإمكان ، وإن كان في مثل هذا الأسلوب من التحقيق شيء من الضعف ، لأنّ لكل شاعر لغة خاصة به ، والمقابلات وحدها هي التي تظهر حقيقة الشعر ، فإذا نُسب شعر إلى شاعرين يعيشان في عصرٍ واحدٍ لزم الأمر أن يُقابَل بين لغة الشاعرين وأسلوبها ، وأبو الفرج لا يكلّف نفسه شيئاً من ذلك في بعض الأوقات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على أنه في بعض الأحيان يروي أبياتاً نسبت إلى عبد الرحمن بن أبي عمّار الجُشَمي في سَلاَّمة القُسّ فيقول : ليست ذلك له والشعر للوليد ، وهو كثيراً ما يذكر سليمى هذه في شعره بأمّ سلاَّم وبسلمى لأنه لم يكن يتصنع في شعره ولا يبالي بما يقوله منه ، من ذلك قوله فيها :

أمّ سلاَّم ! لو لقيتِ من الوجد عَشيرِ الذي لقيت كفاك
فأثيبي بالوصل صبـــاً عميداً وشفيقاً شجاه ما قد شجاك

فهذا النوع من التحقيق لا غبار عليه ، فهو يستند أولاً إلى لغة الشاعر ، فالوليد بذكر أمّ سلاَّم وسَلْمى في شعره والأبيات التي نسبت إلى غيره تحتوي على هذا الاسم ، ثم ان روح الوليد ظاهرة على شعره فهو لا يتصنع ولا يبالي بما يقول .

* * *

قلت في فاتحة الكلام : الرواية والرواة في أدبنا مشكلة من مشكلات هذا الأدب ، وأريد بهذه المشكلة الشك الذي دخل على الشعر خاصة ، فإن بعض الرواة لم يحجموا عن نسبة شعر إلى من لم يقله ، وقد يكون الراوية نفسه قائل هذه الشعر ، فما الذي نستطيع أن نفعله في عصرٍ بعُدنا فيه عن عصر الرواية والرواة ، عن عصر الزيادات والأكاذيب ، فإذا كان الذين نبهوا على أكاذيب الرواة لم يبذلوا أيسر جَهد في توضيح هـذه الأكاذيب وهم معاصرون لأصحابها ، يستطيعون التحقيق والتمييز ، أفنستطيع اليومَ أن نحقّق ونميّز ، ما ذنبنا نحن في هذا العصر ، وقد كان الرواة يختلفون ، بعضهم يروي قصيدة لفلان ، وبعضهم يرويها لغيره بأسرها ، ما ذنبنا إذا كانوا يختلفون في تقديم الأبيات وتأخيرها ، وزيادة الأبيات ونقصانها ، وفي تغيير الحروف في متن البيت وعَجُزه وصدره .

على أن المتقدمين قد نبّهوا على التصحيف والتحريف وبيّنوا وجه الصواب في ذلك ، حتّى ذكروا ما أخذ على كتاب العين وعلى صاحب الصحاح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من التصحيف ، وقد وقع في التصحيف جماعة من الأجلاّء من أئمة اللغة وأئمة الحديث حتى قال الإمام أحمد بن حنبل : ومن يعرّى من الخطأ والتصحيف ، ولكن إذا وقع الأئمة في الخطأ والتصحيف فقد وجدوا من ينبه على وقوعهم فيها ، وعلى ذكر مغالطهم ، فلماذا لم يذكروا المغالط التي وقع فيها من كان يكذب من الرواة .

على أن التحقيق في الشعر المنحول ليس بعسير في عصر الرواة ، فإن لكل شاعرٍ لغة خاصة وألفاظاً كثيراً ما يلجأ إليها ويكرّرها في شعره ، ولكل عصرٍ لغة خاصة بهذا العصر ، فلو اعتنى نقّاد الشعر في عصر الرواية والرواة بتمييز المنحول وردّ كل شعرٍ إلى قائله لاستطاعوا في تلك الأزمان أن ينخلوا الشعر ويبينوا المنحول ، ولو كان عندنا معجم يبيّن تاريخ الألفاظ ، في أي عصر ظهر اللفظ الفلاني ، وفي أي عصر حافظ على معناه أو انتقل من وجه إلى وجهٍ ، لو كان عندنا معجم من هذا القبيل لوجدنا سبيلاً إلى التحقيق ولهان علينا بعض الشيء ردّ كل شعر أو كل لفظ إلى تاريخه ، ولكنّا لا نعلم ميلاد الألفاظ ، وعلى كل حال إن زيادات الرواة قد دخلت ميراثنا الأدبي سواء أقبلنا ذلك أم لم نقبله .

وقد يقول قائل منّا : إذا وقع الشعر مني موقعاً حسناً فسواء عليّ أقاله فلان أم قاله فلان ، وقد قيل مثل هذا القول لخلف ، قال له أحدهم : إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فلا أبالي ما قلته أنت فيه وأصحابُك ، فقال خلف : إذا أخذتَ درهماً فاستحسنته فقال لك الصرّاف : إنه رديء ، هل ينفعك استحسانك له .

هذا قول صحيح إذا أردنا حسن الشعر وقبحه ، أمّا إذا أردنا صحة التاريخ الأدبي ، صحة النسبة وعدمَها ، فلا وزن لهذا القول .

شفيق جبري



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net